"المنهج المقارن"

1- المفهوم والنشأة

المنهج المقارن؛ هو ذلك المنهج الذي يعتمد على المقارنة في دراسة الظاهرة حيث يبرز أوجه الشبه والاختلاف فيما بين ظاهرتين أو أكثر، ويعتمد الباحث من خلال ذلك على مجموعة من الخطوات من أجل الوصول إلى الحقيقة العلمية المتعلقة بالظاهرة المدروسة.

أمّا عن بداية المنهج المقارن فقد" اعتاد الباحثون التأريخ لبداية اللسانيات المقارنة بظهور مقطع من خطاب ألقاه وليام جونز(William Jones) على مسامع أعضاء الجمعية الملكية الآسيوية في كلكوتا بالهند وذلك في اليوم الثاني من شهر فيفري 1786م، مصرحا: "إن اللغة السنسكريتية، مهما كان قدمها فلها بنية رائعة، فهي أحسن من الإغريقية وأغنى من اللاتينية، وأشد تهذيبا وصقلا من كليهما، ولكن تربطها بالآخرين قرابة وثيقة للغاية سواء من حيث الأصول الفعلية أو الأشكال النحوية، ولا يمكن لأي فيلولوجي أن يفحص هذه اللغات الثلاث دون الاعتقاد بأنها انبثقت من أصل واحد قد لا يكون له أي وجود. وهناك سبب مماثل، وإن كان غير قسري، للاعتقاد بأن كلا من القوطية والسلتية على الرغم من امتزاجهما بلهجة مختلفة جدا، إلا أن لهما أصلا واحدا تشتركان فيه مع السنسكريتية. كما يمكن للفارسية القديمة أن تضاف إلى هذه العائلة أيضا". ويحسن بنا أن ندرك هنا أنّ (جونز) لم يقم بوضع منهج البحث في اللسانيات التاريخية والمقارنة، وإنما لقي اقتراحه هذا صدى عميقا في أوساط علماء اللسانيات من أمثال بوب، وراسك، وغريم، وغيرهم كثير، وبهذا التصريح يكون جونز قد قام بتأصيل القرابة اللغوية، والطراز البدئي الأول، والتغير المستمر للغات، وإمكانية دراسة اللغة دراسة تاريخية بدءا من نشأتها إلى الزمن الذي وصلت إليه.

ينطلق المنهج المقارن من مسألة جوهرية في البحث اللغوي، وهي فكرة الفصائل اللغوية الكبرى، وانتماء اللغات إلى عائلات لغوية كبرى، والاهتمام الملحوظ بمسألة اللغات المنحدرة من أصل واحد، ومن رحم واحد أي اللغات التي تنتمي إلى فصيلة لغوية كبرى كالهندية الأوروبية؛ إذ تضم اللاتينية واليونانية والسنسكريتية والجرمانية، وفصيلة اللغات السامية الحامية؛ إذ تضم العربية والبربرية والعبرية والآرامية والآشورية...الخ.

2- شروط المقارنة

يمكننا بواسطة المقارنة الوصول إلى تحقيق دراسة أوفى وأدق في ميدان المقارنة التطبيقية. ولتحقيق مقارنة سليمة يجب توافر شروط الحكم لهذه العملية الذهنية وهي:

- يجب أن لا ترتكز المقارنة على دراسة حادثة واحدة وإنما تستند المقارنة إلى دراسة مختلف أوجه الشبه والاختلاف بين حادثتين أو أكثر .

- أن يسلط الباحث على الحادثة موضوع الدراسة ضوءا أدق وأوفى يجمع معلومات كافية وعميقة حول الموضوع.
- أن تكون هناك أوجه شبه وأوجه اختلاف فلا يجوز مقارنة ما لا يقارن.
- - تجنب المقارنات السطحية والتعرض من الجوانب أكثر عمقا لفحص وكشف طبيعة الواقع المدروس وعقد المقارنات الجادة والعميقة.
- - أن تكون مقيدة بعاملي الزمان والمكان فلا بد أن تقع الظاهرة في زمان ومكان نستطيع مقارنتها بظاهرة مشابهة وقعت في زمان ومكان آخرين.

3- أنواع المقارنة

للمقارنة عدة أنواع يمكننا تلخيصها في:

1/ المقارنة المغايرة: وهي المقارنة بين ظاهرتين أو أكثر تكون أوجه الاختلاف فيها أكثر من أوجه الشبه.

2/ المقارنة الاعتيادية: وهي مقارنة بين ظاهرتين أو أكثر من جنس واحد تكون أوجه التشابه بينهما أكثر من أوجه الاختلاف.

3/ المقارنة الخارجية: وهي مقارنة ظواهر مختلفة عن بعضها.

4/ المقارنة الداخلية: تدرس ظاهرة واحدة من خلال المقارنة بين الأجزاء.

4- مميزات المنهج المقارن

يتميز المنهج المقارن بالدقة والوضوح وذلك لكونه يقوم بكشف أوجه الشبه والاختلاف بين أكثر من ظاهرة وحادثة اجتماعية؛ وتكون الظاهرة واضحة الزمان والمكان وتاريخ حدوثها. فالباحثون الذين يستخدمون هذا المنهج يقومون على أساس تصحيح النصوص اللغوية غير الموثوقة واكتشاف الفصائل اللغوية وتركيباتها حتى يصلوا إلى النتيجة وهي اللغة الأم.

5- أهمية المنهج المقارن

يجمع الباحثون على أن المنهج المقارن" هو الطريقة الناجعة التي تمكّن الباحثين من الكشف عن القرابة بين اللغات ومعرفة نسبها الجيني بصورة دقيقة للغاية. وعلى الرغم من أن هذا المنهج قد استخدم منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر للميلاد فإنه لم يكتمل نموه، ولم يبلغ ذروته إلا في المرحلة الكلاسيكية للسانيات التاريخية الممتدة من

1820م إلى 1870م. ويعني هذا المنهج بانتقاء الوحدات اللغوية القديمة ومقارنتها بما يقابلها في اللغات التي يراد معرفة قرابتها من جهة، ثم بتحديد درجة الصلة بينها، واستخراج الصيغ الأكثر قدما بعدّها أصلا مشتركا لبقية الوحدات من جهة أخرى، وإذا ما وجد المقارن تماثلا جليا بين هذه الصيغ، فإنه لا محالة يتأكد من أنها قد انحدرت من لغة أم واحدة، وبما أنّ التماثل قد يكون في بعض الأحيان نتيجة الاقتراض، فعلى الباحث أن يكون أكثر احترازا لكي لا يقع في الملابسات التي من شأنها أن تقرض دعائم هذا العلم"، رغم ما سيلحق اللسانيات التاريخية من أزمة بعد مواكبتها للتقدم العلمُي في الفيزياء الميكانيكية والتي أسفر عنها القرن التاسع عشر فحفلت ببرنامج **غريم** الصوتي الجرمانية الأولى عن اللغة الهندوأوروبية الأصلية في عصور ما قبل التاريخ، والذي قنّن بموجبه كيفية تغير حروف اللغة، إلى جانب النظرية الداروينية التطورية والتي أنتجت بدورها النظرية اللغوية التطورية عند **أوغست شليشر**.